مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثاني والعشرون– حزيران ٢٠٢٣–ذو القعدة ١٤٤٤
ISSN-2536-0027

تحولات المكان في شعر عمر بن ابي ربيعة

أ.م.د. حميد فرج عيسى
جامعة ذي قار – كلية الآداب

الملخص :
ينطلق البحث لرصد التحولات المكانية في شعر عمر بن ابي ربيعة ، وكون هذه التحولات انما تتم في المزاج الانساني دون الواقع الفيزيائي ، يتم هذا التحول عبر اللحظات التي يعيشها الشاعر ومدى خدمة الظرف له ، فما كان بالأمس اليفاً فهو اليوم معاديا ، وماكان معاديا هو اليوم اليفا ، وقد يكزن يوم غد موحشاً . ان النظرة العلمية للمكان وهي تنمطه بحسب واقعه لايمكن ان تكون محل قبول في الشعر ؛ بوصف الشعر خرقا وانزياحا ؛ لذل فقد سجل البحث تلك التحولات وآثارها.

Summary
The research begins to monitor the spatial transformations in the poetry of Omar bin Abi Rabia, and the fact that these transformations take place in the human mood rather than the physical reality, this transformation takes place through the moments in which the poet lives and the extent of the circumstance serving him. Tomorrow may be lonely. The scientific view of the place, which is its pattern according to its reality, cannot be accepted in poetry; describing the hair as a breach and a displacement; Therefore, the research recorded these transformations and their effects .

المقدمة
يتشكل المكان في النصوص الابداعية شاخصا معرفيا قبل كونه مساحة جغرافية في بعدها الفيزيقي ، إذ يهب المكان المعنى ثباته واستقراره بلحاظ الصورة الكلية التي ترسمها هواجس المبدع ، كما انه يؤثث النصوص ، ويلون مساحاتها المستعملة .

لا يمكن لنص من النصوص التخلي عن المكان ، اذ تجري الاحداث عليه مقترنا بالزمن ، غير ان هذا الحضور يمكن أن ينمط بحسب قراءات الواقع ، فأليف اذا اعتقد الناس انه بيت الالفة والآمن من الآفات ، الذي يهب الطمأنينة والدفء ، فيما يمكن أن يسجل على نوعه الضدي كونه غير آمن ، بل يمكن ان يكون موحشا، او قفرا ، وربما كان مغلقا ، او مفتوحا ، الى غير ذلك من تقسيمات النقاد . واذا كانت الامكنة تهب النصوص معالمها وتشكل اركانها ، فإنها قد لا تقر بوعي المبدع على صورتها الحقيقية والمألوفة دائما ، بل أن تحولا يمكن أن يجري عليها فيصير الاليف موحشا ، والمفتوح مغلقا ، والمقدس مدنساً . ان هذا التحول يتم في البعد النفسي للمبدع ونشاطه الذهني ، وهو غير ما يراه غيره تماما ، اذ تعمل الحالة الشعورية هنا على ترك المعتاد من الصورة الواقعية للمكان وتمضي الى تشكيله بصورة اخرى بحسب الظرف المحيط ساعة انشاء النص الابداعي .

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثاني والعشرون– حزيران ٢٠٢٣–ذو القعدة ١٤٤٤
ISSN-2536-0027

يعاين البحث هنا التحولات المكانية في شعر عمر بن ابي ربيعة ، وسيختار البحث تحولين مهمين هما : الاليف والموحش ؛ لوفرتهما في ديوان الشاعر ، ولوضوح صورة التحول عبر اليات : الاسترجاع والتخيل والتخييل ، ورسم العوالم .

تحولات المكان

توطئة :

لاشك في أن لتقسيمات النقاد والفلاسفة لأنماط المكان دوراً في فهم المكان وتوظيفه داخل النص ، وتستند تلك التقسيمات الى التجربة الانسانية وعلاقتها بالمكان مرة ، والى مساحة الاستعمال الابداعي في النصوص مرةً أخرى ، فالبيت اليف في نظر باشلار ، لأنه يعده مهد الصبا ، المكان الذي يمنحه الدفء والحنان والامان (١) ، وبذلك فهو ينطلق من رؤية اجتماعية نفسية في عد البيت اليفا ؛ لتوافر مصادر الهدوء والأمان والطمأنينة فيه ؛ ولأنه الحاضن النفسي لكل ارهاصات الانسان ومحدد حركته .

تنطلق الفلسفة الظاهراتية من رؤيتها للمكان الأليف بوصفه فضاءً ذا سكينة وهدوء ، وأنه منطلق القصدية في الرغبة بالمكوث فيه ، في كونها تحدد اولويات الشعور الذاتي للانسان ووعيه الكامل بوجوده في حيز ما ، في حين يعد المكان المعادي نقطة استنفار لقوى الانسان وطاقاته ، وهو يحاول التخلص من تبعاته التي يمكن أن تكون حالة ألمٍ أو موت له . يقول باشلار : ((التجارب التي يمر بها الانسان حين يُلقى به الى العالم ، خارج البيت ، هو وضع تحشد فيه عداوة البشر والكون، ولكن الميتافيزيقيا الكاملة المحتوية على الوعي واللاوعي تبقي قيمها داخلها ، في داخل الوجود في وجود الداخل)) (٢) ؛ وبذلك يقترح الانسان في بعض الأحيان خيار العزلة ، الأماكن الضيقة أو المفتوحة كفيلة بأن تعيد للإنسان استقراره وتعيد اليه طمأنينته.

إن الالفة والعداء أمران غير مستقرين في فكر الانسان وسلوكه ؛ لأنه يتساوق مع امكانية ثبات الاليف اليفاً والمعادي معاديا ، هذا الثبات يقتضي حكم القيمة دائما على ما حولنا ، ويقتضي توقف صور الحياة وانماط سلوكها دائما ، بل يقتضي تسمر وعي الانسان وادراكه لقيمة الاشياء دائما ! وهو أمر لا يمكن توقعه ، اذ ((ان الفرد يدافع عن حيزه وكثيراً مايمنع الآخرين من الولوج اليه)) (٣) وبذلك يضطر الانسان لتغيير موضع اهتمامه بهذا المكان أو ذاك بحسب قابلية الوصول اليه ، هذا في الانسان غير المبدع ، فكيف بالمبدعين الذين يروا الحياة صوراً مختلفةً في كل يوم ، بل هم من يشكلون تحولها وجمالها ؟؟

يتحول المكان في نصوص الشعراء ، فالاليف معادياً ، والطلل روضة ، والصحراء سجناً، والمعادي اليفاً ، والمفتوح مغلقاً ، والمدنس مقدساً ، والعكس صحيح ، هذا التحول نابع من رؤية الشاعر للوجود ، لأحساسه المرهف ساعة وجوده في المكان ، وهنا يشترك الزمن بوصفه محدداً موضوعياً لانقلاب المكان وتحوله ؛ اذ تتلاعب لحظات اللقاء والحرمان ببنية المكان ، فتغيره ، وبذا يتحول الأليف ذو السكينة والهدوء الى سجن متى ما ضاقت الحياة فيه وتعكر صفوها ، وادرك الانسان أن هذا البيت لم يعد مستقرا ولا مقاما ، ولربما فضل عليه خيمة في الصحراء. هكذا ترى ميسون بنت بجل الكلبية ، اذ ان بيتها في الصحراء / الخيمة / احب اليها من قصر معاوية ، تقول في ذلك :

لبيت تخفق الأرواح فيه ... أحب إلي من قصر منيف (٤)
ولبس عباءة وتقر عيني ... أحب إلي من لبس الشفوف
وأكل كسيرة في كسر بيتي ... أحب إلي من أكل الرغيف
وأصوات الرياح بكل فج ... أحب إلي من نقر الدفوف

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثاني والعشرون– حزيران ٢٠٢٣–ذو القعدة ١٤٤٤
ISSN-2536-0027

وكلب ينبح الطراق دوني ... أحب إلي من قط ألوف
وبكر يتبع الأظعان صعب ... أحب إلي من بغل زفوف
وخرق من بني عمي نحيف ... أحب إلي من علج عنوف

ان القصر الملكي الذي نقلت اليه ميسون لم يكن مكاناً اليفا ، ولامستوعبا لمناها وتطلعاتها في عيش رغيد ، وهي اذ لاترغب به ، فانها تفضل عليه بيتاً في الصحراء تخفق فيه الارواح ، بمعنى ممتلئ بالحيوية والحركة ، وان كسرة خبز في ظهر بيتها هناك أفضل من أكل الرغيف في القصر ، هذا التحول في الأمكنة هو تحول في الرؤية ، اذ الالفة والأمان والدفء والحنان في الصحراء لافي القصر . وربما تحولت الطلول ، تلك الأمكنة الدارسة ، الأمكنة التي تركها أهلها وارتحلوا عنها ، تحولت الى كائن له قدرة الاستجابة لتلفتات القلب ، يقول الشريف الرضي في ذلك :

ولقد مررت على ديارهم وطلولها بيد البلى نهب (٥)
فوقفت حتى ضج من لغب نضوي وضج بعذلي الركب
وتلفتت عيني فمذ خفيت عني الطلول تلفت القلب

كتب د. هلال الجهاد: ((إن الانسان بوصفه كائناً حياً موجوداً في الحركة وبها ، فالحركة تغيير شامل ومستمر ذو تاثير مباشر على حياته – الانسان – وجه صراعه مع الطبيعة ودفعه الى امكانات جديدة من اجل البقاء)) **(٦)** إن حركة الانسان على ضوء وجوده لاتنحصر في صراعه من أجل العيش المادي فقط ، انما يمكن ازاحة هذا التصور الى مديات أبعد من ذلك ، الا وهي حياته النفسية في مداها الابداعي ، فهو يبحث عن الحياة التي تعنيه ، وليصورها كيفما اراد وأحب ، من هنا فان الشريف الرضي عاش في نصه المتقدم حركتين : الاولى حركة في المكان ، اذ مر به وهو – المكان – بيد البلى نهب ، وهي حركة مكانية يحكم قوانينها الوجود الفيزيقي للمكان، وحركة معنوية نفسية ، اذ تحركت الأمكنة نفسها (خفيت عني الطلول) أي ابتعدت ، لينتقل هو بوساطة قلبه في تلفته نحوها ، انه يريد أن يغير مسار الحركة باتجاه عكسي تبعاً لهواجسه ، فالطلول الدارسة المنهوبة بيد البلى استطاعت أن تجعل القلب متلفتاً دون غيرها من الأمكنة .

إن المكان الشعري لايخضع لضوابط الطبيعة وتشكلات الواقع ، فهو متلون من حين لآخر، ومتحول بحسب رغبة الشعراء ، فالمنزل الذي كان بالأمس مأهولاً اليفاً يحتضن أسرار العشاق ونجواهم أمسى خرباً ؛ لأن صاحبته فارقته .

يقول عمر بن ابي ربيعة :

ياطول ليلي وآب لي طربي لما تذكرت منزل الخرب (٧)
منزل منه راح عنه معتمرا ليلة ست خلون من رجب
فهي لنا خلة نواصلها من غير ما محرم ولا ريب

هنا يتحول المنزل من كونه اليفاً / البيت/ الى خربة ، ليغدو التلقي فيما بعد مشدوداً الى معرفة أسباب هذا التحول ، المنزل الذي تغنى به الشاعر وعده مكاناً للقاء ، ومحلاً للشوق وبث الحب ، كيف يمكن أن يتغير وصفه ويتبدل؟ الا أن الجواب موجود في ثنايا النص ؛ اذ يعزي عمر سبب هذا التغيير وانقلاب بيت الحبيب خرابا الى خلوه منه ، اذ انه **راح معتمراً** ، يؤدي العمرة ، ولاينسى الشاعر في لحظة من لحظات الانفعال النفسي أن يؤرخ لهذا الغياب ، انه في ست خلون من رجب ، وبالفعل فـ((لعل ابرز وظائف الشعر قدرته على تفسير الأشياء والأحداث بطريقة خاصة))**(٨)** وفي ضوء ذلك فان التبدل والتغيير هنا محكوم بضوابط يفقهها الشاعر أو قل المبدع ، وهي فيما بعد تصلح أن تكون أسباباً لهذ التغيير .

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثاني والعشرون– حزيران ٢٠٢٣–ذو القعدة ١٤٤٤
ISSN-2536-0027

إن جمالية التحول في المكان عند عمر تتأتى من إنشائه االمكان المتغير على ضوء تبدلات الحالة النفسية له ، وقدرته على اقناع التلقي بضرورة قبول هذا التغيير ، وإن كان التلقي قد رسخ مفاهيم الجمال في القصد الاول ، الا أن صناعة المكان هنا هي وصفه على الطريقة الشاعرية لا الواقعية ، وهنا يكمن سر جمال التحول .

١- الاليف معادياً :

لاشك في أن الشاعر قد يرى ما لايراه الإنسان غير الشاعر ، اذ يختلط لديه الواقعي بالمتخيل فيعامله معاملة الواقع ، وهو يرى فيما بعد عالمه الخاص ، فيؤثثه كيفما له أن يؤثثه مادام عالمه هو ، ويستطيع البحث هنا أن يستعير قول ياسين النصير في تشكيل المكان بوصفه كياناً اجتماعياً ، اذ يراه بأنه((الكيان الإجتماعي الذي يحتوي على خلاصة التفاعل ، بين الانسان ومجتمعه ؛ ولذا شأنه شأن اي نتاج اجتماعي يحمل جزءاً من اخلاقية وافكار* ساكنيه))(٩) خلاصة التفاعل هذه هي التي تمنح المكان قيمته النفسية ، فتجعله اليفاً أو معادياً ، بل تصيره معادياً وقد يكون اليفا .

يقول عمر : (الطويل)

أمن ال نعمٍ أنت غادٍ فمبكرُ غداة غدٍ أم رائح فمهجر (١٠)
بحاجة نفس لم تقل في جوابها فتبلغ عذرا والمقالة اعذر
تهيم الى نعم فلا الشمل جامع ولا الحبل موصول ولا القلب مقصر

الى ان يقول :

اذا زرت نعما لم يزل ذو قرابة لها كلما لاقيتها يتنمر
عزيز عليه ان الم ببيتها يُسِر لي الشحناء والبغض مظهر
الكني (١١) البيها بالسلام فانه يشهر المامي بها وينكر

يشي النص في عتباته الأولى بقصدية الشاعر في إنجاز زيارة حبيبته ، إذ يتعاهد الغداة في سفره لها ، وهو بين سؤال وجواب لنفسه في امكانية وصوله لها ، وما يلبث النص بعد عتبته أن يفصح عن معاناة الشاعر في الوصول الى دار حبيبته ، التي يفترض أن اتكون داراً اليفة وهي تجمعهما تحت غرض الحب والشوق ، تلك المعاناة التي قصد النص تبيانها لإظهار جمالية القصد وبث روح المغامرة عليه ، فانه يشعر التلقي بأن أقارب نعم كان يترصده ما أن يلاقي نعم أو يحاول زيارتها ، وهي مقدمة فنية جمالية من الشاعر لرفع كفاءة النص وعده حاملاً لأهداف الفكرة ومخاطرها ، فأقاربها عزيز عليه أن يلم الشاعر ببيت قريبته ، وقد أخفى شحناءه عليه في سره ، وأظهر كرهه له ، وهو ينكر عليه ما إن يبعث برسالة سلام لها ، هنا يبدو بيت الحبيبة محاطاً بالخطر ، وأن الأعداء يترصدون قدوم المحب الشاعر . ويتلون المكان الأليف معاديا في تتمة قوله :

فلما فقدت الصوت منهم واطفئت مصابيح شبت بالعشاء وانور (١٢)
وغاب قمير كنت اهوى غيوبه وروّح رعيان ونوّم سمّر
وخفّض عني الصوت اقبلت مشي الـ حباب (١٣) وشخصي خشية الحي ازور
فحييت اذ فاجأتها فتولهت وكادت بمخفوض التحية تجهر
وقالت وعضت بالبنان فضحتني وانت امرؤ ميسور امرك اعسر
اريتك اذ هنا عليك الم تخف وفيت وحولي من عدوك حضر

هكذا يدخل الشاعر في صلب المكان المعادي ، اذ ينتظر حتى فقد الصوت منهم ، وهي كناية عن خلود القوم للنوم ، واطفئت الانوار ، وغاب القمر ، وروح الرعاة ونام السمار ، اذن هي ساعة متأخرة من الليل

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثاني والعشرون– حزيران ٢٠٢٣–ذو القعدة ١٤٤٤
ISSN-2536-0027

، ينجز فيها النص تأثيث مكانه ، وإعطائه درجة الخوف الشديد والحذر ، وفي كل هذا الحذر فانه يزحف اليها كزحف الحية على الأرض الملساء ، مائلا متسترا، هنا إذ ((يقدم المكان حلا للمبدع حين يريد الهروب أو حين يعمد الى عالم غريب .... وهنا يتحول المكان الى رمز))(١٤) على أن عمر هنا كان قد اخذ المتلقي لنصه الى عالم من المجازفة والخوف والترقب ، كل هذا والمكان بيت الحبيبة ، وليس ساحة معركة أو عرين أسد ، في إشارة الى هذا التحول في المتخيل والمبني على جمالية التغيير .

ويقول في مكان آخر :

فجئت أمشي ولم يغفُ الأولى سمروا وصاحبي هندواني به اثر (١٥)
فلم يرعها وقد نضت مجاسدها (١٦) الا سواد وراء البيت يستتر
فلطمت وجهها واستنبهت معها بيضاء انسة من شانها الخفر
ما باله حين يأتي اخت منزلنا وقد رأى كثرة الاعداء قد حضروا
لشقوة من شقائي اخت غفلتنا وشؤم جدي وحين ساقه القدر

الصورة الشعرية التي رسمها عمر تتجه باتجاه صورة المشهد ، اذ تتحرك عناصر الصورة في إطار درامي يلبس عليه الشاعر صورة التحدي والجسارة وهو يقتحم الحي ، وقد أحس أن بعض السمار لم يناموا بعد وسيفه بيده ، في ظل هكذا مشهد يقدم عمر لمشهد آخر هو غايته وخلاصة جهده ، إمرأة خلعت ملابسها وهي تتهيأ للنوم في بيتها ومخدعها ، وقد راعها ولم يرعه هو بوصفه المتسلل هذا الذي يستتر وراء الستر . إن اخفاء الشخصية هنا خلف الستر هي محاولة لإخفاء الحدث الأكبر (لقاء الحبيبة) هذا الاخفاء جزء من آليات عمر وتقنياته لمفاجأة التلقي ، وقد لطمت المرأة وجهها واستيقظت من معها وقد أعلمته أن أعدائه حاضرون .

تتجلى جمالية التحول هنا في قصدية الاختفاء ووعي الذات المتخفي في كونه يقدم على أمر جلل بحسب المفهوم العربي ، كما انها – الجمالية – تتكرس في وعي الآخر سواء أكان الآخر مكاناً أم شخصا . كتب باختين يقول: ((انني أحقق وعيي الذاتي عبر كشف ذاتي للآخر وبمعونته)) (١٧) هكذا يتحد وعي عمر الذاتي مع الاخر المتحول في لحظة اندماج تام وهو يقتحم عالمه الجمالي عبر تسلق نسق القيم العربي مرة ، والتضحية بالنفس أخرى .

لعل البيان العربي الشعري كان قد عرف مثل هذا الاندماج والتماهي عبر وعي الآخر في ذاته والإنصهار معه ، يقول عنترة بن شداد :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل منّي وبيض الهند تقطر من دمي (١٨)
فوددت تقبيل السيوف لانها لمعت كبارق ثغرك المتبـــــــــــسم

في نص عنترة يمكن أن يلاحظ بوضوح إندكاك الشاعر مع الآخر في جزء من صورته (اسنانها التي اشبهت لمعان السيف) وهو خروج تام عن مكان الحدث الرئيس (المعركة) الى عالم حبيبته ، العالم الذي اثثه عنترة عبر وعي ذات الاخر والانصهار فيه .

ويقول عمر في مكان آخر محولا البيت مكان الإلفة الى مكان معاد :

اشكو الى بكر وقد جزعت بها بغلاتها خوص النواصف ترفع (١٩)
قالوا بمر اليوم ثم مبيتهم ضحيان او عسفان ان هم اسرعوا
حتى اذا حسروا بصارع كلها وبدا لهم منها طريق مهيع
فاتيتهم عند العشاء مخاطرا حذر الانيس وليس شيء يسمع
اقبلت اخفي مشيتي متقنعا واخو الخفاء اذا مشى يتقنع

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثاني والعشرون– حزيران ٢٠٢٣–ذو القعدة ١٤٤٤
ISSN-2536-0027

فاتيت حين تضجعوا بعد الونا من سيرهم او قبل ان يتضجعوا
فاذا ثلاث بينهن عقيلة مثل الغمامة نشرها يتضوع

يرسم عمر هنا صورة المرأة العقيلة في بيتها ، وقد دخل عليها في حذر من أهلها ، وهنا يبرز عمر التخفي واضحا ، بل ويبرر لذلك التخفي ، من أن أخاً لها هو في الخفاء يتقنع ايضا ، هذا التقنع هو تحويل في مسار اللقاء الحميمي في مكان الالفة ، اذ يجتمع الأحباب فيه ، وهنا لابد من القول: إن المكان الأليف لايمكن قصره على البيت ، بل أين ماحل الأمان ولو كان خيمة ؛ لذا لم يظهر في النص هندسة البيت ، الا من فهم الصورة الكلية من أن المقصود من المكان هنا خيمة ، اذ يتابع عمر سيرهم في حلهم وترحالهم ، وفي الارتحال لاشك في أن المكان خيمة . إن اخفاء وصف المكان هنا هو جزء من اسباغ جمالية على النص ؛ لان التلقي سيكون مشغولا بهندسة المكان وتصوره .

٢- الأليف موحشا :

ينتظم الموحش في المنظومة المعجمية بأنه غير المحبب الى النفس ، فالموحش ((والوحشة : الأرض القفر المستوحشة ..))(٢٠) فيما نراه في المفهوم الإصطلاحي انه ضد الاليف ، أي المكان الخالي او الذي لاترغب به النفس .

وقد بدا للعربي الابتعاد عن المكان الموحش ؛ لأنه لا يأنس به ، وذكره كثيرا في قصائده بوصفه مكاناً تهرب النفس منه ، وتشمئز ؛ لأن عماد العيش هو الانسان وما يتشكل من قيم اجتماعية فيه . وتزخر المدونة الشعرية القديمة بهذا اللون من الذكرى للدار ، يقول لبيد في معلقته:

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تابد غولها فرجامها (٢١)
فمدافع الريان عري رسمها خلقا كما ضمن الوحي سلامها

هذا التأوه على الدار وهي متحولة من جنان ورياض الى التصحر يدعو للأسف وللوقوف كثيراً على قيمها الجمالية الانسانية ، اذ ينشد الانسان الى المكان في علاقته . يقول يوري لوتمان : ((إن نماذج العالم الاجتماعية والدينية والسياسية والاخلاقية العامة التي ساعدت الانسان على مر تاريخه الروحي على اضفاء معنى على الحياة التي تحيط به ... تنطوي دوما على سمات مكانية)) (٢٢).

اذا كان للمكان من تأثير على الإنسان بوصفه شاغلاً له ومنفعلاً بوجوده ، فانه على الشعراء أكثر تاثيراً ، اذ يعيش الشاعر بإحاسيس أكثر من غيره ، لينفعل فيما بعد بالمكان وأبعاده ، من هنا نرى شاعرنا تذهب نفسه حسرات على المكان الذي كان يوماً ما قصرا مشيداً ، كيف أضحى موحشا .

يقول في ذلك :

ماعلى الرسم بالبليين لو بيـــــــــــــــــن رجع التسليم او لو اجابا (٢٣)
فالى قصر ذي العشيرة فالصا لف امسى من الانيس يبابا
موحشا بعدما راه انيسا من اناس يبنون فيه القبابا
اصبح الربع قد تغير منهم واجالت به الرياح الترابا
فتعفى من الرباب فامسى القلب في اثرها عميدا مصابا

ينتظم المكان هنا بوصفه منطقة استرجاع لصور الماضي وأنسه ، فبعد أن كان المكان مشيداً بالقباب أمسى اليوم موحشا، هكذا هو المكان بين سلطتين : الماضي والحاضر، واذا كان الدهر قد عفى رسوم الدار وقصرها ، فانه ايضا عفى من الرباب ، الحبيبة التي ارتحلت برحيل المكان وتحوله .

ويقول في مكان اخر :

امن رسم دار دمعك المترقرق سقاها وما استنطاق ملا ينطق (٢٤)

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثاني والعشرون– حزيران ٢٠٢٣–ذو القعدة ١٤٤٤
ISSN-2536-0027

بحيث التقى جمع واقصى محشر معالمه كادت على العهد تخلق
ذكرت به من قد مضى وتذكر ال حبيب ورسم الدار مما يشوق
ليالي من دهر اذ الحي جيرة واذ هو ماهول الخميلة مونق
مقاما لنا ذات العشاء ومجلسا به لم يكدرنا عليه معوق

لا يكتفي عمر من سرد الذكرى واسترجاعها ، بل انه يذرف الدموع على تلك الآثار الموحشة التي كانت يوما دار الفة ولقاء . إن جمالية التحول هنا تبدو في الاسترجاع ، وكيف يمكن للوصف أن يتنقل بين مشهدين في وعي الشاعر وذاتيته، مشهد الوجود المكاني مؤثثا بوجود الحبيبة داخل بناء المكان نفسه وما يحيط به من زروع ، ومكان الأثر الموحش الذي يقلق الشاعر ويحزنه الى درجة البكاء.

يقول الدكتور هلال الجهاد ((لقد كان الشاعر العربي يقول الشعر ليحقق لذاته خلاصها من انويتها الضيقة المنعزلة عن الآخر الذي يعيش كينونته المحالة الى فضاء الدهر)) (٢٥) وهو بالضبط ماحدا بعمر الى أن يذرف دمعه لفرط وحشة المكان وغربته.

في مكان آخر يقول عمر :

حي المنازل قد تركن خرابا بين الجرير وبين ركن كسابا (٢٦)
بالثني من ملكان غير رسمها مر السحاب المعقبات سحابا
وذيول معصفة الرياح فرسمها خلق تشيهه العيون كتابا
كست الرياح جديدها من تربها دفقا فاصبحت العراص يبابا
ولقد اراها مرة ماهولة حسنا نبات محلها معشابا

هذه المرة يتجلد عمر ليحيي المكان ، بل ويأمر الآخرين أن يحيوه ، تلك المنازل التي تركت خرابا ، وقد غير رسمها المطر وهو يحمل اليها بوساطة السحاب ، والرياح ، تلك الدار التي كانت مأوى لعمر أو لحبيبته ، أمست اليوم خراباً بفعل التحول ، تحول المكان الفيزيقي ، وتحول المنظر والذكرى ، هنا يلح عمر على الاسترجاع والذكرى في تأثيث صور مكانه ، اذ يعمد دائما الى تذكير التلقي بأن المكان هنا تحت سلطة الآخر ، الآخر الزمان ، الآخر الخراب ، المهم في الأمر ليس تحت سلطته، لكنه يذكر أنه يوما كان قد رآها مأهولة ، وقد أعشوشب نباتها ، وعمر بذلك يريد أن يوصل رسالته الينا عبر اللغة بأن المكان الذي يسعى لتأسيسه هو العالم في وعيه الشعري ، لذا ((يمكن القول: إن بنية مكان النص تصبح نموذجاً لبنية مكان العالم)) (٢٧) وكيف كان فإن الشاعر هنا يحاول ارسال رسالة في التحول وجمالياته ، فليس المكان خرباً فحسب ، هكذا بتقرير المكان الحالي وانما خرب وإعادة انتاج المكان ضمن شبكة من العلاقات الثقافية التي رافقت المكان وذاكرته .

وقال ايضا :

امست كراع الغميم موحشة بعد الذي قد خلا من الحقب (٢٨)
ان تمس وحشا فقد شهدت بها حورا حسانا في موكب عجب

إن كراع الغميم / المكان / هنا تخضع لضوابط الطبيعة وتقلباتها ، سواء في حوارها مع المكان بوصفه بنية مشيدة ام في حوارها مع عالم المكان وتشكل رؤاه في العالم ، فان ما خلا من الحقب والسنين كان قد غير منظرها وكساها بغير كسوتها الاولى ، فهي موحشة لتبدل اوضاعها وتغيرها ، واذا كان اليوم يسكنها الوحش ، وهي اشارة مرجعية للعنصر المعجمي للغة في الوحشة والموحش والوحوش وغيرها ، فان بالأمس كانت تسير فيها الحسان ، هذه الثنائية في محل الاسترجاع والذكرى والتقابل اللوني الفني هو من شكل جمالية التحول وتبدله .

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثاني والعشرون– حزيران ٢٠٢٣–ذو القعدة ١٤٤٤
ISSN-2536-0027

الخاتمة

يمكن رصد النتائج التي توصل اليها البحث بمايأتي:

- ان قابلية توصيف المكان في كونه اليفاً او معاديا انما تنطلق من شعور نفسي بالدرجة الاولى من دون الغاء الواقع الفعلي في الامن او المعاداة ، يتضح ذلك في هواجس المبدع وشعوره بالخوف الفني او الامن ويتفاعل مع المحيط .
- ليس هناك من توصيف قار للمكان فيما اذا اخذ بنظر الاعتبار حركة الانسان واندفاعه الى اكثر من مكان وهو يسجل مشاهداته وتفاعله معه ، ففي الوقت الذي يكون المكان اليفا فيه يمكن له ان يكون معاديا فيما اذا تبدلت الظروف وشعر الانسان انه في واقع اخر غير ماشعر به .
- تسهم حركة الانسان عموما والمبدع على وجه الخصوص في تحولات المكان ، اذ ان الطابع النفسي والاجتماعي يغيران من توصيف النمط متى ماتغيرت الظروف المحيطة بالمكان .
- تدخل الذاكرة واسترجاعها في تحولات المكان ، اذ تسجل التغييرات التي طرأت عليه بوصفها متغيرات تشكل الصفة الجديدة له ، وهذا غالبا مايتم من الحوادث الطارئة عليه ، ومثال ذلك الطلل الذي توقف عنده شاعرنا كثيرا .
- ان تنميط المكان ووصفه بالأليف او المعادي او الموحش لا تنحصر في الحيز الجغرافي الذي يعنيه الشاعر في نصه فحسب ، انما يمكن ان نقول : ان تخيل مكان ما او رسمه وتوصيفه بوصف معين انما هو رسم للعالم ، وهي محاولة ابداء وجهة نظر في اسلوب جمالي عن العالم .

الهوامش

(١) جماليات المكان ، غاستون باشلار : ٣١
(٢) المصدر نفسه : ٣٨
(٣) جماليات المكان ، جماعة من الباحثين ، يوري لوتمان : ٦٠
(٤) حياة الحيوان الكبرى ، كمال الدين محمد موسى الدميري، ٢: ٢٠٨
(٥) ديوان الشريف الرضي ،١: ١٤٥
(٦) فلسفة الشعر الجاهلي ، دراسة تحليلية في حركة الوعي الشعري العربي ،د.هلال الجهاد : ١٩
(٧) الديوان : ٧٢
(٨) انماط الصورة في والدلالة النفسية في الشعر العربي الحديث في اليمن ، الدكتور خالد علي حسن الغزالي :٢٨٣
* كذا ورد في نص النصير ، والصواب ، (يحمل جزءا من اخلاقية ساكنيه وافكاره) اذ لايجوز تعدد المضاف
(٩) الرواية والمكان ، ياسين النصير ،: ١٦
(١٠) الديوان : ١٢٢ – ١٢٣
(١١) الامر من الك ، اي ابلغ الالوكة او وحملها ، والالوكة تعني الرسالة (الديوان هامش ٨) : ١٢٢
(١٢) الديوان : ١٢٥
(١٣) الحباب : الحية (الديوان هامش ٢٧) : ١٢٥
(١٤) جماليات المكان في مسرح صلاح عبد الصبور ، مدحت النجار : ٢١
(١٥) الديوان : ١٣٦

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثاني والعشرون– حزيران ٢٠٢٣–ذو القعدة ١٤٤٤
ISSN-2536-0027

(١٦) المجاسد : جمع مجسد وهو القميص الذي يلي الجسد (هامش ١١ الديوان : ١٣٦)
(١٧) المبدأ الحواري ، تودوروف :١٢٢
(١٨) ديوان عنترة بن شداد: ١٢٦
(١٩) الديوان : ٢١٧ – ٢١٨
(٢٠) المعجم الوسيط، مجموعة مؤلفين: ١٠١٨
(٢١) ديوان لبيد بن ربيعة العامري :١٦٣
(٢٢) جماليات المكان ، مجموعة باحثين : ٦٩
(٢٣) الديوان : ٥٦
(٢٤) الديوان : ٢٤٨ – ٢٤٩
(٢٥) جماليات الشعر العربي ، دراسة في فلسفة الجمال في الوعي الشعري الجاهلي، هلال جهاد: ١٧٠
(٢٦) الديوان : ٦٢
(٢٧) جمالية المكان ، مجموعة باحثين : ٦٨
(٢٨) الديوان :٣٠

المصادر

* انماط الصورة في والدلالة النفسية في الشعر العربي الحديث في اليمن ، الدكتور خالد علي حسن الغزالي مجلة جامعة دمشق ، مج ٢٧ ،ع ٢ ، لسنة ٢٠١١
* جماليات الشعر العربي ، دراسة في فلسفة الجمال في الوعي الشعري الجاهلي، هلال جهاد، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٧

- جماليات المكان ، غاستون باشلار ترجمة غالب هلسا، ط٢، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع بيروت،١٩٨٤
- جماليات المكان ، جماعة من الباحثين ، يوري لوتمان ، بلا
- جماليات المكان في مسرح صلاح عبد الصبور ، مدحت النجار ضمن كتاب جماليات المكان ، جماعة من الباحثين
- حياة الحيوان الكبرى ، كمال الدين محمد موسى الدميري تهذيب وتعليق اسعد، طلاس للدراسات والترجمة والنشر ،سوريا – دمشق ، ط ١٩٩٢ الفارس
- ديوان الشريف الرضي ، منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، بيروت – لبنان ، ط بلا ،
- ديوان عمر بن ابي ربيعة، وقف على تصحيحه بشير يموت، ط١، المطبعة الوطنية، بيروت، ١٩٣٤
- ديوان عنترة بن شداد، اعتنى به وشرحه، حمدو طماس، ط٢، دار المعرفة بيروت لبنان، ٢٠٠٤
- ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، دار صادر – بيروت ، سنة الطبع بلا
- الرواية والمكان ، ياسين النصير ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٦
- فلسفة الشعر الجاهلي ، دراسة تحليلية في حركة الوعي الشعري العربي، د. هلال الجهاد ، دار المدى للنشر – سوريا ، ط ١ ، سنة ٢٠٠١

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثاني والعشرون– حزيران ٢٠٢٣–ذو القعدة ١٤٤٤
ISSN-2536-0027

- المبدأ الحواري ، تودوروف ، دراسة في فكر ميخائيل باختين ، ترجمة فخري صالح ، دار الشؤون الثقافية – بغداد ، ١٩٩٢
- المعجم الوسيط، مجموعة مؤلفين، مجمع اللغة العربية، ط٤، مكتبة الشروق الدولية، الادارة العامة للمعجمات واحياء التراث،٢٠٠٤